الرأي, مقالات

17 أبريل 2024 00:36 صباحا

تولستوي..والنبي محمد

الكاتب

عبدالحسين شعبان

عبد الحسين شعبان

تُعتبر رواية «الحرب والسلم»، للأديب والفيلسوف الروسي ليو تولستوي (1828 ـ 1910)، الرواية الأكثر شهرة وانتشاراً، والتي شاهدنا فيلماً مقتبساً عنها في ستينات القرن الماضي، من بطولة أودري هيبورن وهنري فوندا، ومن إخراج فكتور كينغ، لكنَّ آراءه بخصوص النبي محمد (ص) لم تكن قد اشتهرت إلّا في العقود الخمسة المنصرمة، وإن كان كتابه «حِكَم النبي محمد» قد نشر قبل ذلك بفترة طويلة، وترجمه سليم قبعين إلى اللغة العربية في عام 1912 ((مطبعة التقدم ـ مصر).

وكان مالك منصور، حفيد محمد عبده مفتي الديار المصرية وأحد أركان حركة الإصلاح الديني منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، قد أشار إلى أن متحف تولستوي يحتوي على رسالتين متبادلتين بينهما، علماً بأن تولستوي كان قد وجّه رسالةً إلى عبده أبدى فيها رغبته في تأليف كتاب عن النبي محمد (ص)، وطلب منه مساعدته في جمع الأحاديث الشريفة وتدقيقها، والتي تُعدّ من كَلِم النبي، لاعتقاده أن أحاديث النبي ومواعظه وحِكمه، هي ما يحتاجه بنو البشر، بغضّ النظر عن دينهم وملّتهم، لأن الأنبياء هم ملك للبشرية جمعاء.

وقد شجّع الشيخ محمد عبده تولستوي على ذلك، دون النظر إلى أنه من دين آخر، وقال يكفي أن يكتب تولستوي، أديب روسيا، وأعظم كتابها عن النبي (ص). وبالفعل فقد جمع تولستوي في كتابه نحو 600 حديث من أحاديث الرسول الكريم، وضمّها في باقة ملوّنة ومتنوّعة، تُمثّل القيم الإنسانية السامية.

وكان تولستوي قد أبدى انبهاره بالنبي محمد (ص)، واعتبره من كبار المصلحين في التاريخ، الذين خدموا البشرية خدمةً جليلةً، ويكفيه شرفاً أنه هدى أمةً برمّتها إلى الحق، وجعلها تجنح إلى السلام وتجد طريقها إلى المدنية والتقدم.

ويعود سبب اهتمام تولستوي بالسيرة المعطرة للرسول الكريم إلى اهتمامه بقضايا الخير والشر والدين والأخلاق، وانفتاحه على الثقافات العالمية بحثاً عن القيم الإنسانية، حيث كان قد تعرّف إلى الأدب العربي، وأراد الاستزادة من الإسلام ورسالته الإنسانية لتعميق جوهر ثقافته، بالاطلاع على فلسفة النبي محمد ورؤيته الاجتماعية.

وكان قد قرأ منذ وقت مبكّر حكايات «علاء الدين والمصباح السحري»، و«ألف ليلة وليلة»، و«علي بابا والأربعون حرامي»، و«قمر الزمان بن الملك شهرمان»، وقد أشار إلى ما تركته الحكايتان الأخيرتان في نفسه من أثر كبير، وهو لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره، ولغرض إشباع رغبته في التعرف إلى نفائس الأدب العربي اتّجه إلى دراسة اللغتين العربية والتركية في كلية الدراسات الشرقية بجامعة قازان (كازان) الروسية (1844)، لكنه لم يستمر في الدراسة، التي لم تعجبه فيها طريقة التدريس العقيمة، كما قال.

لقد دافع تولستوي عن الإسلام وقيمه السمحاء، راداً على الاتهامات التي كانت توجّه إليه وإلى نبيّه، والتي كان يتم ترويجها من جانب «جمعيات المبشّرين»، ولذلك اتّجه إلى تأليف كتابه المذكور، وفي مقدمته ذات البُعد الإنساني كتب قائلًا: إن تعاليم الشريعة الإسلامية لا تقل في شيء عن تعاليم الديانة المسيحية. وبهذا المعنى أراد تولستوي أن يؤكّد أن قيم الأديان مشتركة ومتقاربة، وأن رسالة النبي محمد (ص) هي امتداد لرسالة النبيين موسى وعيسى عليهما السلام، وهو ما يؤكّده القرآن الكريم.

كما اعترف تولستوي بمكارم أخلاق الصحابة وزهدهم وطهارة سيرتهم واستقامتهم ونزاهتهم، مشيراً إلى أن من فضيلة المسلمين أن دينهم أوصى خيراً بالمسيحيين واليهود، وكتب ذلك في مقدمته الجليلة عن حِكَم الرسول، وربما قصد بذلك صحيفة المدينة، التي سنّها الرسول بعد هجرته من مكّة إلى يثرب (المدينة المنورة).

اتفق تولستوي ومحمد عبده أن الدين والإنسان يشكلان أساس الحياة، وأن قيمة الإنسان لا يمكن تقديرها بأي ثمن، ووظيفة الدين هي النهوض بالإنسان وعقله، كي يبني الحياة ويعيش بسلام.

وجاء في رسالة محمد عبده المؤرخة في 8 نيسان/ إبريل 1904، أي قبل 6 سنوات على رحيل تولستوي 1910، مخاطباً إياه: «أيها الحكيم الجليل، لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكن لم نُحرم التعارف بروحك، فقد سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك آلفت بين نفوس العقلاء ونفسك...».

وردّ تولستوي عليه بخطاب رقيق قال فيه: أيها الصديق العزيز، إن خطابك أدخل في نفسي عظيم السرور، حين جعلني على تواصل مع رجل مستنير، وإن يكن من أصل ملّة غير الملّة التي ولدت عليها وربيت في أحضانها، فإن دينك وديني سواء، وإن كانت المعتقدات مختلفة، وهي كثيرة، ولكن لا يوجد إلّا دين واحد هو الصحيح... وكلّما نزعت المعتقدات إلى البساطة وخلصت من الشوائب اقتربت من الهدف المثالي الذي تسعى الإنسانية إليه، وهو اتحاد الناس جميعاً.

الرسالة الأخلاقية التي تمسّك بها تولستوي في أعماله الإبداعية، هي التي كانت وراء قناعاته بالمشترك الإنساني للأديان وفي بحثه عن السلام واللّاعنف والتسامح، بما فيها مراسلاته مع المهاتما غاندي، وهذه الرسالة هي التجسيد العملي لقول الرسول الكريم: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وحين سئل من أحب عباد الله إلى الله، قال: «أحسنهم خلقاً». وقال «خالق الناس بخلق حسن». ورُوي عن الحسن عن أبي الحسن عن جدّ الحسن «أحسن الحُسن الخلق الحسن».

drhussainshaban21@gmail.com

"حقوق النشر محفوظة "لصحيفة الخليج .2024 ©